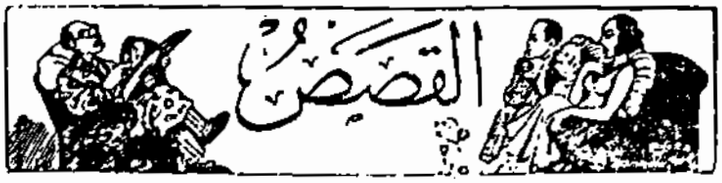

أسطورة من روائع الأدب الروسي :

بشر وشياطين

[قصة الخمر والدخان وغلبة الشيطان على الإنسان]

للكاتب الفيلسوف ليو تولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

ما كاد الصبح يتنفس ، وتخفق جنبات الكون بالحياة .. حتى هرع الفلاح الفقير يغذ الخطى إلى حقله ... وقد بكر فى غدائه بروم الخرث والفلح .. ويحمل معه كسرات يابسة من الخبز ليفطر ثمة بها ...

فلما هيأ محراثه وربط إليه حصانه ... علق ثوبه — وقد أودعه كسرات الخبز — إلى شجيرة دانية ... وانطلق يشق أديم الأرض ويقلب التربة ... حتى إذا ما تصرمت ساعات الصبح ، وتراءت الضحى وأدركه العناء ، وتبدى الإعياء والسغب على حصانه ... أطلقه فى سبيل الكلأ ... وانثنى هو إلى الشجيرة يبتغى الكسرات يسد بها جوعه الذى راح يبرح به ...

فما إن بسط ثوبه حتى تولاه العجب .! إذ ألفى الخبز قد اختفى منه ... فقلب الثوب بين يديه وراح يهزه ، ولكن عبثاً !. فليس للخبز من أثر . فقال — يحدث نفسه وما زال الشك يتوزعها — « عجباً ! ! . . إن هذا غاية فى الغرابة ، إنى لم ألمح أى إنسان هذه الصبيحة ! . لعل أحدهم كان هنا ، وأخذ معه الخبز .! » .

أجل لقد أخذه واحد من الشياطين الصغار ، بينما كان الفلاح مستغرقاً فى عمله ... وكان فى ذلك الحين قاعداً خلف الشجيرة يترقب ما سوف يتفوه به الفلاح من لعن وسباب ...

فاض قلب الفلاح بالأسف وألم به الضيق لضياع الخبز الذى أعده لفطوره ، بيد أنه ما لبث أن ارتفع صوته فى هدوء : « ليست ثمت حيلة ... وعلى كل حال فلن أقضى من الجوع ! . وإنى أحسب أن من استولى على الخبز أشد منى حاجة إليه ... فهنيئاً لمن أخذه ! . » .

ومضى إلى جدول .. فرشف منه بعضاً من الماء يتقع به غلته .. ومال يستريح من عناء العمل ومن قرصة الجوع ... وبعد حين أسرج جواده وقيده إلى المحراث وعاد يقلب به صفحة الترب من جديد ...

***

فطأطأ الشيطان الصغير برأسه ... وقد ركبه الخجل والألم لإخفاقه فى حمل الفلاح على أن يزل لسانه ويشرع فى سبيل الخطيئة ... وانثنى إلى أستاذه الأكبر « إبليس » يروى له ما حدث! وكيف أنه أخفى عن الفلاح الفقير البائس كسرات الخبز فلم يحمله هذا على أن يتلفظ بكلمات السوء ... بل قال وهو قرير النفس . « هنيئاً لمن أخذها . ! » .

فصاح فيه « إبليس » ... وقد تملكه الغضب وزاد تلهب عينيه وكأنهما جمرتان وسرى الحنق والسخط إلى نفسه : « إنه خطؤك أنت — فلست تفقه ما ينبغى عليك أن تعمله ... فبهذه الطريقة سوف يعيش الفلاحون وأزواجهم وذريتهم سعداء فى راحة وهناء ... يجب عليك أن تبث الضغينة وتنفث فيهم البغضاء وتفسد قلوبهم وتثير الحقد فى نفوسهم ... فهذه رسالتنا منذ أن خلق البشر ... انطلق ثانية ... وإنى لأمهلك ثلاث سنوات لتصلح ما أتيته من خطأ ... فإذا عدت بعدها ولم تفلح فى أن تدع الشر ينساب فى قلب ذلك الفلاح ، فسوف أغرقك فى الماء المقدس » .

فارتعدت فرائص الشيطان الصغير من الفرق والهلع ، وهو يرى أستاذه الأكبر يتوعده بالثبور والعذاب الأليم ... فغاص فى باطن الأرض ، وهو يجهد ذهنه ويعصره بحثاً عن حيلة توغر قلب الفلاح ، وتدفع عنه غضب إبليس ... وما أرهبه من غضب ! . فراح يفكر ويطيل التفكير حتى عثر على خطة بارعة .

فانقلب فى شكل واحد من بنى آدم ... وتمثل بشراً سوياً ... وذهب إلى الفلاح حيث سأله عملاً بأجر رخيص ... فلم يجد هذا بأساً فى أن يلحقه بخدمته ليكون له عوناً فى زراعته . !

وفى السنة الأولى أشار على الفلاح بأن يزرع قمحاً فى أرض غدقة جرداء ذات جدب ومحل ... فعمل الفلاح بمشورته ، وبذر قمحه فى تلك الأرض السبخة ... فلما انقضى الحول — وكان ذا صيف صيهد شديد الحر — لفحت الشمس غلال الفلاحين

الآخرين فأحرقتها ... دون قمح ذلك الفلاح فقد نمى كثيفاً ، وغلظت سنابله ودحس حبه ... فغاض عن حاجته بعد أن أترعت خزائنه وامتلأت ... فألقاه جانباً ...

فلما حان موعد الزرع من جديد أخذ الشيطان يزين له أن يبذر القمح هذه المرة فى سفح الجبل ... فرضخ الفلاح لمشيئته ... بيد أن الصيف فى هـذه السنة كان طلقاً ذا ريح سجسج ... فتلفت غلال الآخرين وعفنت ولم تجدل لهـا سنابل ... أما الفلاح فقد تأتى له حصاد طيب أبلغ فى الوفرة من سابقه ... فحار الفلاح فيما يفعله بكل تلك الزيادة ...

وحينئذ أوحى إليه الشيطان كيف يستخلص الخمر من الحنطة فينقعها حيناً ثم يقطرها حتى يبلغ منها الراح فيعتقه ثم يشربه ...

فراح الفـلاح يقطر الخمر ... ويودعها فى دنان ... ثم يدعو رفاقه ليتناولوا منها معه حتى يدركهم الثمل والسكر . !

* * *

عاد الشيطان الصغير إلى أستاذه « إبليس » يحدثه بما فعل فى زهو وخيلاء ... فأخبره أستاذه الأكبر بأنه سوف يرافقه ، فيرى بعينه ما وفق إليه تلميذه ورسوله ...

فلما بلغ دار الفلاح ألفى هذا قد جمع حشداً من صحابه وجيرته يدعوهم إلى الشراب وكانت زوجه تدور عليهم بالقداح ، فيتناولون منها ويعلون، وبينما هى تمد يدها ببعض الشراب إلى واحد منهم ... تعثرت قدمها فهوت على الأرض وتحطمت إحدى الدنان ...

فاحتدم غيظ الفلاح ، واستشاط غضباً على زوجته ... وانطلق يعنفها ويلعنها : « ما هذا أيتها الكسيحة الحمقاء ؟ ! هل عميت حتى تهرق هذه الخمر النفيسة على الأرض ؟! اغربى عن وجهى . لعنة الله عليك ! . » .

فلكز الشيطان الصغير أستاذه « إبليس » فى جنبه بمرفقه وهو يقول فى صوت رن فيه جرس الانتصار والزهو : « انظر ... هذا هو الرجل الذى لم أتمكن من إثارة غضبه حينما كان الجوع يصرخ فى أمعائه ... وقد ضاعت منه كسرات الخبز ! . »

وقام الفلاح يناول الخمر أضيافه ... وما زال لسانه يجرى باللعن والسب على زوجته ... وحينئذ داف إلى الدار أحد الفلاحين ، وهو عائد لتوه من حقله . فرأى القوم يتناولون الخمر ... فحدثته نفسه بأنه واجد عندهم بعض الشراب يبعث الراحة فى نفسه ، وقد أنهكه التعب وأضناه العمل ... فجلس إلى أحد المقاعد وراح يتلمظ القطرة من الشراب . ولكن صاحبنا الفلاح — بدلا من أن يجود عليه ببعض الخمر — قال له فى صوت أجش شاعت فيه الغلظة : ليس عندى شراب لكل عابر سبيل ! . . فتفضل بمغادرتنا » .

فترسمت على شفتى « إبليس » ابتسامة ... بيد أن الشيطان الصغير ما لبث أن همس فى سمعه : « انتظر بعض الوقت! وانظر ما سوف يفعلون ! . » .

تهـلل الرفقاء الأغنياء مع صاحبهم الفـلاح ، وجرعوا من الصهباء ما طاب لهم : ولذ لمذاقهم ... وبدأت تسرى بينهم أحاديث النفاق والخـداع ، وتجرى على ألسنتهم ألفاظ السـوء والنميمة ... وتطير بين شفاههم كلمات اللؤم والمداهنة والرياء .

فأصغى « إبليس » لما يقولون ... وسره ما رآه من نبوغ تلميذه الشيطان ... وقال « إذا كان هذا الشراب يحملهم على أن يتبادلوا أحاديث المكر والخداع كما هى خـلال الثعالب فإن ذلك يجعلهم عجينة طيعة فى أيدينا نحن الشياطين ! . » .

فأجابه الشيطان الصغير : « دعهم يتناولون زقاً آخر من هـذه الخمر ... ثم ارقب ما يكون من أمرهم ... إنهم الآن يتصببون بأدنابهم كالثعالب ، ويتماكرون فى دهائها ولكن بعد حين سوف ينقلبون إلى ذئاب وحشية ! . »

وزع الفلاح على الأضياف كؤوساً أخرى من الخمر فراحوا يعبون منها فى نهم .. وبدأت أحاديثهم ترتفع وتخشن . وتنساب فى رتنها غلظة الوحشية ... فبعد أحاديث الملق والرياء ، راحوا يتقاذفون بألفاظ السباب والشتائم ، ويزمجرون فى أصوات مخيفة ويلطم كل منهم الآخر على أنفه ويصفعه على وجهه . واشتبك معهم كذلك الفلاح صاحب الدار ...

فمد الشيطان الأكبر طرفه إلى ذلك ، وقد بلغ منه السرور والبهجة مبلغاً عظيماً ... وراح يردد « هذا عظيم ... هذا عظيم ! » ولكن العفريت ما لبث أن قال له « انتظر قليلا فثمة ما هو أعظم من هذا ... ترقبهم حتى يُفرغوا فى أجوافهم دناً ثالثة ... فينقلبوا من ذئاب وحشية تتلاطم وتتصافع، إلى خنازير لا تدرك ولا تعى ..

تناول الفلاحون دناً ثالثة ... فارتفع لجاجهم وعطمطمتهم وهم يلغطون كالبهائم التى لا تملك إحساساً ولا شعوراً . فأخذوا يصيحون دون أن يعرفوا سبباً لصياحهم ولا يصغى أحدهم للآخر !

وبدأ الحفل يشرف على منتهاه ... وانطلق السكارى فرادى ومثنى وثلاث ... تعلو صيحاتهم الحيوانية وصراخهم الوحشى فى هدأة الدجى فيمزق سكونه فى رهبة تبعث الرعب !.

وهم الفلاح يودع أصدقاءه ... ولكنه سقط فى بركة من الماء الضحل .. فتلطخ جسده وثوبه بالوحل من هامته إلى أخمص قدمه .. فانفلت يلعن ويسب ، وهو قابع فى مكانه كالخنزير ..

***

قهقه «إبليس» عالياً .. وعاد يطرى نبوغ تلميذه ثم قال له : « لقد أمكنك أن تصلح خطأك حين أخفيت الخبز عن الفلاح .. وفزت بالنجاح فيما اختبرتك فيه ..

ولكن خبرنى كيف يُركب هذا الشراب الساحر .. لابد أنك وضعت فيه خلاصة من دماء الثعالب .. وأضفت إليه دماء الذئاب ثم مزجتها بدم الخنازير .. ذلك ما جعلهم يتهاكرون ويتملق بعضهم بعضاً فى أول الأمر كالثعالب !. ثم يتضاربون كالذئاب .. ثم يصيحون كالخنازير التى فقدت إحساسها ومشاعرها »

فأجابه الشيطان الصغير : « لا يا سيدى الفاضل !. ليست هذه الطريقة التى اتبعتها فى عمل هذا الشراب ... كل ما فعلته هو أنى لحظت أن الفلاح توفر لديه القمح وزاد عن حاجته !..

إن دماء الحيوانات والوحوش كامنة فى عروق الإنسان منذ أن فُطر .. فطالما عنده ما يكاد يكفى حاجته من الطعام والخبز .. ظلت هذه الدماء ساكنة حبيسة .. ولذا لم يغضب الفلاح حينما سرقت منه كسرة الخبز !

وحينما توفر لديه القمح وراح يسعى إلى وجوه جديدة يتنعم فيها بهذا الوفر فدللته على متعة عظيمة .. هى الخمر فلما أخذ يقلب فضل الله وخيره عليه ... إلى هذه الخمر ليتخذها متعة لنفسه ، انطلقت دماء الثعالب ودماء الذئاب ودماء الخنازير من سكونها وراحت تعبث بنفسه وتعبث بعقله .. ولو أن الإنسان داوم على الشراب !. لظل حيواناً وحشياً طيلة حياته ... إن الرغد من أسباب الرذيلة !. » .

فامتدح إبليس تلميذه الشيطان الصغير وأثنى على براعته وعفا عما بدر منه سابقاً من ذنوب ... ورقاه إلى رتبة أعلى فى دنيا الشياطين!

(القاهرة) مصطفى جميل مرسى

أحدث مؤلفات المربى الكبير

الأستاذ أحمد عطية الله

ص

٢٥ مغامرات مونشهاوزن

١٠ حكاية الطعام

٠٨ المنظار السحرى

٠٤ قصص علمية

تطلب وخلافها من

دار احياء الكتب العربية

لأصحابها عيسى البابى الحلبى وشركاه — ت ٥٠٨٥٦ بمصر

السلسلة الفلسفية الاجتماعية

للدكتور توفيق الطويل

١ — قصة النزاع بين الدين والفلسفة

٢ — علم الغيب فى العالم القديم

٣ — التصوف إبان العصر العثمانى

٤ — الأحـــلام

وثمن النسخة ٣٠ قرشاً عدا البريد

وتطلب من

مكتبة الآداب

بالجماميز بمصر ت ٤٢٧٧٧

هل يعتصرك اليأس وتنظر للحياة بمنظار أسود ؟ هل تشعر بمرارة الفشل وتعتقد أنك سيء الحظ ؟ هل تظن أن القدر يأبى عليك السعادة ؟ هل أنت فريسة الأوهام والوساوس والقلق والأحزان والمزاج السوداوى والتشاؤم والآلام العصبية ؟ هل تشكو من اضطرابات عقلية أو نفسية ؟ هل تعانى مرارة الحرمان من لذات الحياة وتشعر بحسد السعداء ؟ هل تشكو مركب النقص ؟ هل تشكو ضعفاً أو انحرافاً جنسياً ؟ وأخيراً ، هل تريد التخلص من متاعبك وأحزانك وأسباب فشلك ؟ ثم هل تريد دراسة علم النفس دراسة وافية علميا وعمليا ؟ هـــل تريد الوقوف على الأسرار الخفية لما وراء الطبيعة ؟

إرسل فوراً إلى (معهد الـكرنك)

بمصر الجديدة — مصر . للدراسات النفسية والفلسفية والروحية

بطلب النشرة الإيضاحية ، وارفق طلبك بطوابع بريد قيمتها ٣٠ مليما

سكك حـــديد الحكومة المصرية

عرض الاعلانات بالمحطات

لقد وجهت المصلحة كل عنايتها إلى المحطات فاقامت بها لوحات خشبية أعدت خصيصاً لعرض الاعلانات فضلا عن أنها تبذل مجهوداً صادقاً من وقت لآخر فى تجميل تلك المحطات حتى أصبح الاعلان فيها من أحسن وسائل الدعاية التى تنشدها كل من يرمى إلى التوسع فى أعماله وكل تاجر يسعى إلى رواج تجارته .

وتتقاضى المصلحة جنيهين مصريين عن المتر المربع فى السنة وهى قيمة زهيدة تكاد لا تذكر بجانب أهمية الإعلان الذى يتصفحه الآف المسافرين فى اليوم الواحد .

ولزيادة الاستعلام اتصلوا :—

بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامه بمحطة مصر